المحاضرة الثانية: الشعرية والشفوية الجاهلية.

مدخل:

تكاد تجتمع المعاجم اللغوية العربيّة في أنّ مصطلح الشّفويّة أو الشّفاهية أو المشافهةُ تفيد المخاطبة والمواجهة، حيث جاء في معجم مقاييسُ اللغةُ: "والمشافهة بالكلام ...: مواجهة من فيك إلى فيه. ورجل شُفاهِي: عظيم الشّفتين"[i]1

كما جاء في لسان العرب: " المشافهة المخاطبة من فيك إلى فيه، والحروف الشفيّة، الباءُ والفاءُ والميمُ، ولا تقل شفويّة.[ii]2

وجاء في معجم محيط المحيط ما يشاكل ذلك في القول بأنّ: الحروف الشفهية هي الباء والفاء والميم يجمعها قولك بِفَمٍ (...) المخاطبة والمشافهةُ مواجهة من فيك إلى فيهُ، والمحدّثون أطلقوها في الإجازة المتلفظ تجوّزا. والمشفوهُ الذي كثر سؤال النّاس إياه حتى نفذ ماعنده.[iii]3

كل هذه الدلالات تدور في فلك مصطلح الشفوية لا تكاد تخرج منه.

من المتعارف عليه أنّ اللغة الشّفويّة وسيلة من وسائل التواصل، وأداة للتخاطب اليومي، تكون ذات طابع شفوي وهي الأصل الأول لكل أشكال التّواصل اليومي ويعرف" موريس هويسMaurice Houis"النّصوص الشفهيّة الأصيلة بأنها "تلك التي تتميّز بترقيم موقّع يجعل من السّهل على المتكلّم تخزينها في ذاكرته، وعلى الجمهور فهمها[iv]؛أي أن الطابع الشّفوي يمتاز بمرونة لغويّة عاليّة، تسهل على القارئ عمليّة الحفظ، وبالتّالي يمكن الاستغناء عن الشكل الكتابي،"يُحيل إذن مفهوما التّقاليد الشفهيّة والتّقاليد الكتابيّة على شكلين من التّواصل اللغوي يحددان بدورهما نمطين من لتمعات"[v]، أي أنّ هناك مجتمعات ذو ثقافة شفويّة ارتجالية، تعتمد على الذاكرة في حفظ تراثها، بالمقابل هناك مجتمعات ذات ثقافة كتابيّة تدوينيّة، هذا ومهارة تعد حفظ الكلام مسألة لها قيمتها المتعارف عليها في الثّقافات الشِفاهيّة.لكنّ الطريقة التي تعمل الذّاكرة اللغويّة في أشكال الفن الشفاهي جدّ مختلفة عمّا تتخيله عامة الكتابيين في الماضي. ففي الثقافة الكتابيّة يتم الحفظ الحرفي عموما من خلال نص يعود إليه الحافظ كلما دعت الضرورة كي يحسن مستوى حفظه ويختبره"[vi]، وقد شهدنا الثقافة العربية القديمة في العصر الجاهلي تحديدا- مركزا يعتّد به في جميع الحالات، إلى مجيء الدلأ امتازت بالشفاهيّة، والتي كانت ثابتا ومرين الإسلامي الذي حوّل موازينهم كزا، والشفاهيّة أو الشفويّة هامشافصارت الكتابة مرّ. ومع ذلك يمكن القول أن "التعبير الشفاهي يمكن أن يوجد، بل

وجد في معظم الأحيان دون أيّ كتابة على الإطلاق أما الكتابة فلم توجد قطّ دون شفاهيّة"[vii]، وفي هذا تأكيد على ما سبق في أنّ الشفاهيّة هي الأصل والمركز، والكتابة منها هامش وفرع.

الشفوية الجاهلية عند العرب:

الشفوية الجاهلية لغة:

يتطرّق بعض النّقاد العرب للتّقعيد لمصطلح الشّفويّة الجاهليّة، باعتباره مصطلحا مهيمنا في هذه المرحلة التّاريخيّة المؤسسة للأدب العربي، فنجد المفكّر "ابن خلدون" : يتعرّض للشّفويّة اللغويّة والشّعريّة في مقدمته، فيقول:" إنّ العرب أنشدوا الشّعر وغنّوه بالملكة والفطرة، ولم تكن لديهم قواعد تنظّم ذلك، وإنما كانوا يعتمدون الذّوق والحسّ، ولمّا كان السّمع أبا للملكات اللّسانيّة وتغيّرت ملكة العرب اللسانيّة " ألقى السّمع من المخالفات التي للمتعرّبين بعد اختلاطهم بأهل الحضر من ذوي الألسنة غير العربية"[viii] فلم يكن للعرب القُدامى منهاج للقول والحديث، ولم يعرفوا التّقنين، وإنما فطرة وسليقةً.

ويرى الفارابي هو الآخر في الشّفويّة الجاهليّة شعرية متميّزة، فيذهب" إلى أنّ الموسيقى المقرونة بالقول الشّعري هي الطّبيعة على الاطلاق. وتعدّ، من حيث التّأثير والتّخييل، في المكانة الأولى. ومن هنا يوليها العرب وأهل الشّرق، بعامة، عناية فائقة، لكونها طبيعية للإنسان. فهذه الموسيقى المقترنة بالقول الشعري تكسب النّفس لذةً وراحةً وسماعا جميلا. وتُفيدها تخيّلات وتوقع فيها تصوّرات، وتزيد في عواملها الانفعاليّة والتّأمليّة" [ix]وهنا تأكيد على أهميّة الشّعريّة الشّفويّة الجاهليّة، وتفرّدها عن الشّعريّة الكتابيّة في العصور اللاحقة.

الشفوية الجاهلية اصطلاحا:

في الاصطلاح: يتطرّق أدونيس في كتابه "الشعريّة العربيّة" إلى مصطلح الشفويّة في عدة مواضع من متن الكتاب؛ من أجل إبراز عمق هذا المصطلح في تراثنا العربي، فيصرّح قائلا: أستخدم عبارة الشّفويّة لأشير، من ناحية، إلى أنّ

الأصل الشّعري العربي في الجاهليّة، نشأ شفويا ضمن ثقافة صوتيّة–سماعيّة؛ والى أنّه، من جهة ثانيّة، لم يصل إلينا محفوظا في كتاب جاهلية، بل وصل مُدوناً في الذاكرة، عبر الرّواية؛ ولكي أفحص، من ناحية ثالثة، خصائص الشّفوية الشّعريّة الجاهليّة ومدى تأثيرها على الكتابة الشّعريّة العربيّة في العصور اللاحقة، وبخاصة على جماليتها"[x] فغرضه هو البحث عن شعريّة المصطلح، خاصة العربي الجاهلي عرف أدبا شفويا متميّزا، هذا ما دعاه للتأسيس للشفويّة الجاهليّة، بالنّبش في خصائصها الكامنة.

تبعا لذلك نجده يعرف الشّفويّة قائلا: "تفترض الشّفويّة السّماع. فالصّوت يستدعي الأذن أولا. ولهذا كان للشفويّة فن خاص في القول الشعريّ، لا يقوم في المعبّر عنه، بل في طريقة التّعبير(...) لِنقل: كان الإنشاد والذّاكرة بمثابة الكتاب الذي ينشرُ الشّعر الجاهليّ، من جهة، ويحفظه من جهة ثانيّة"[xi] ومن ثمة فالشعر الجاهلي شفوي قائم على ثقافة سماعيّة إنشادية، ينتقل من جيل إلى آخر بالاعتماد على الذاكرة والحفظ، هذا ما يبرر ضياع النثر الذي كان عصيا للحفظ، لأنّه لا يملك نغما موسيقيا مثل ما يوجد في الشّعر.

الحواشي:

---

[i] – أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا: معجم مقاييس اللغة، تح: عبد السلام محمد هارون ، دار الفكر للطباعة والنّشر والتّوزيع، ج 3، ص 200

[ii] – ابن منظور: لسان العرب، دار المعارف، د ط، د ت، ص 2294.

[iii] – المعلّم بطرس البُستاني: محيط المحيط، مكتبة لبنان، بيروت، طبعة جديدة، 1987 ، ص 473.

[iv] – لويس جان كاليفي: التّقاليد الشفهيّة ذاكرة وثقافة تر: رشيد برهون، هيئة أبو ظبي للثقافة والتّراث، ط 1، 2012م، ص 63.

[v] – المرجع نفسه: ص13.

[vi] – وال ترج أونج: الشفاهية والكتابة، تر: حسن البنا عز الدين، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، د.ط، 1994، ص 104.

[vii] – المرجع نفسه: ص04.

[viii] – أدونيس: الشعر يّة العربيّة، دار الآداب، بيروت، ط 3، 2000م، ص15.

[ix] – المصدر نفسه: ص19–20.

[x] – المصدر نفسه : ص05.

[xi] – المصدر نفسه: ص 06– 07.